غزوة بدر أول درس فى الديمقراطية

obeikandl.com

obeikandl.com

غزوة بدر أول درس فى الديمقراطية

درج الناس منذ القدم على تقييم العالم بمقدار حفظه للنصوص ، وقدرته على سرد ما قاله العلماء السابقون من حكم وأمثال ، وما توصلوا إليه من أحكام وتشريعات ، ويزيد قدر العالم عند العامة — وأحياناً لدى الخاصة أيضاً — إذا برع فى سرد الحكايات عن السابقين ، وترديد ما رواه الخلف عن السلف ، دون أن يعمل فكره فيما حفظ ، ودون أن يحلل هذه النصوص ويوازن بينها ، لدرجة أنه — غالباً — ما يغفل عما بينها من تناقض ، وعما تحويه من أفكار يعجز العقل عن فهمها ، ويأبى الواقع حدوثها ، فإذا ما جوبه بتناقضها ، صرخ فى وجه المنتقدين بأنها أقوال علمائنا الأجلاء السابقين ، وكأنها اكتسبت قداسة بمضى الزمن ، كما قال بسكال : كلما طال الزمن بالرأى ازداد قداسة ، فالأقدم أكثر قداسة من القديم الذى يحاط بقداسة لا يتمتع بها رأى حديث .

إن هذا المنهج التعلمى — وهو منهج الحفظ والاستذكار — تراجعت أهميته فى عالمنا المعاصر ، وتوارى الاهتمام به فى العملية التعليمية ، وفقد سلطانه فى مجال التقييم العلمى ، واحتلت مكانه قيم تعليمية أخرى ، يطلق عليها : " عالم المعرفة " ، أى أن تحصيل العلوم ليس هو الهدف الأسمى فى مجال التعليم ، بل تحليلها ، وتقييمها ، والموازنة بين عناصرها ، والبحث عن إمكانية تطبيقها فى حياة الأفراد والمجتمعات . فالعملية التعليمية فى العصر الحديث تقوم على دعامتين :

الأولى : تحصيل المعلومة ، وهو بمثابة مقدمة ، أو أساس لما بعدها ، وهى الدعامة الأولى ، والثانية : تفصيلها ، وتحليلها ، والموازنة بين عناصرها المختلفة ، واستنتاج ما يعود بالفائدة منها على المجتمع .

إن مجرد سرد الأحداث التاريخية ، والتغنى بها ، والإشادة بأبطالها ، لا يتعدى تأثيره الانفعال الوقتى ، فسرعان ما يتوارى ويختفى بعد فترة زمنية قصيرة ، دون أن يترك أثراً ذا قيمة فى مجال الأخلاق ، أو يعدل سلوك منحرف ، أو يرد على اتهامات باطلة ، لأنها تُعْتَبَر — بصورتها

هذه – منشطة للعواطف ، ومثيرة للروح ، وشاحنة للعقل الجمعى ، ولذا ينبغى أن نتذكر أحداثنا التاريخية بصورة مختلفة عن احتفالاتنا بها فى الماضى ، بمعنى ألا نقتصر على سرد الأحداث ، واستحضار الصور من الماضى ، لنبتئس بها ، ونرضى غرورنا ، أو نزيل بها نقصاً نشعر به بين الأمم ، بل علينا أن نحلل هذه الأحداث ، ونستخلص منها الدروس والعبر ، ونستخدمها فى حل مشاكلنا المعاصرة ، سواء كان ذلك على مستوى الاتجاهات الفكرية والنظريات الأيديولوجية التى يتقاذفها المفكرون ، بعضهم ببعض ، ويرددها المثقفون فى منتدياتهم ومجالسهم ومؤتمراتهم ، أم كان الأمر يتعلق بمدى صلاحية تطبيق النظام الإسلامى فى المجتمعات المعاصرة . فالاقتصار على سرد أحداث الماضى دون تفعيلها فى الحاضر يمثل فجوة عميقة بين الفكر الإسلامى ومتطلبات الوضع الدولى فى العصر الحديث ، وفى المستقبل المأمول . ولذا ينبغى على من يشتغل بالعلوم الإسلامية أن يتناول صفحات التاريخ الإسلامى بأسلوبين : أسلوب السرد وحكاية ما حدث فى سالف الدهر ، وذلك عندما يكون المستمعون له على درجة متوسطة – أو أقل – من الثقافة والفكر ، ولا يتعدى ما يقوله المكان المحدود الذى يتحدث فيه . أما إذا كان صدى صوته يتجاوز الزمان والمكان ، بأن يكون مسجلاً ، أو منقولاً بواسطة وسائل الإعلام المختلفة : مقروءة ، ومسموعة ، ومرئية ، فيجب عليه ألا يقتصر على هذا الأسلوب ، فإن ذلك يُعَرِّض ما يقوله للنقد والتجريح ، تلميحاً أو تصريحاً ، بل قد يصل الأمر إلى رفضه كلية ، بحجة أن ذلك ماضٍ لا يصلح للحياة المعاصرة . ولهذا ينبغى عليه تحليل الأحداث الماضية ، واستنتاج ما يصلح من مبادئها وأهدافها للتطبيق فى المجتمع المعاصر ، وبذلك يرتبط الماضى بالحاضر ، ويُكَوِّن لبنة صلبة فى بناء المستقبل ، فقديماً قالوا : من لا ماضى له ، فليس له حاضر ، ولن يكون له مستقبل .

فإذا تجاوزنا هذه النظرية المجردة إلى مجال لتطبيق ، وخاصة فيما يتعلق بغزوة بدر ، فإنه يتحتم علينا – وخاصة إذا كنا نخاطب جبهة عريضة على امتداد الكرة الأرضية – ألا نقتصر على سرد أحداثها ، بل نحاول استنتاج المبادئ والقيم التى تتناسب مع واقعنا المعاصر . ومن أهم هذه الميادئ : مبدأ الشورى ، أو الديمقراطية بالتعبير المتداول فى هذه الأيام ، ففى غزوة بدر موقف من أهم المواقف التى ترسى قواعد الشورى فى المجتمع الإسلامى ، فقد روى النسائى عن

مجاهد قال : جاء رسول الله ﷺ بجيش الإيمان ، فنزل على أقرب ماء من بدر ، وعرض الأمر على الصحابة ، فجاء إليه الحباب بن المنذر ، وقال : يارسول الله ! أمنزل أنزلكه الله تعالى ، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخره ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال رسول الله ﷺ : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، قال : يارسول الله ! ليس هذا بمنزل ، فامض بالناس ، حتى تأتى أدنى ماء من القوم ، فتنزله ثم تغور ماوراءه من القلب ، ثم تبنى عليه حوضاً ، فتملؤه ماء ، ثم تقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فاختار رسول الله ﷺ ذلك المنزل ، وأخذ برأى الحباب كاملاً .

ففى هذا الحدث أمران فى غاية الأهمية ، ينبغى على المسلمين أن يضعوهما نصب أعينهم :

الأول : إذا كان رسول الله — وهو المؤيد بالوحى — قد نوقش فيما ارتآه واختاره ، ونزل على رأى أحد المسلمين ، فمن باب أولى يجب على المسلمين أن يناقشوا ولى الأمر فيما ينوى اتخاذه من قرارات ، ويبينوا له خطأه ، لأنه ليس أفضل من محمد ﷺ ، فقد اعتُرِض على رأيه وقبل الاعتراض ، ولذا ينبغى أن يقبل ولى الأمر اعتراض المسلمين على ما يتخذه من سياسات . ولن ينقص ذلك من قدره ، فقد قبل نبى الله ، المؤيد بالوحى من السماء ، اعتراض أحد المسلمين ، ولم ير فى ذلك بأساً ، بل دل على علوّ قدره ومكانته ، كما بيَّن بوضوح أن هذا هو ما يجب أن يلتزم به أولو الأمر مع من هم تحت إمرتهم ، وإلا كانوا مخالفين أوامر الله ورسوله .

الثانى : الذى نتعلمه من هذا الحدث يتعلق بالنقاش حول ما يشاع من أن سيطرة الدين على النظم السياسية تعوق حركة التقدم ، وتعرقل مسيرة الرقى الحضارى ، بما يفرضه رجال الدين على الفكر من قيود ، وما يمارسونه — بحكم موقعهم الروحى — من تسلط فكرى على قوى الإبداع والابتكار لدى الإنسان ، مستدلين على ذلك بأن الحاكم فى الدولة الإسلامية منزه عن النقد ، لأنه يتحدث باسم الإسلام . وهذه فرية أشاعها بعض المغرضين ، وصدقها كثير من الناس ، محتمين وراء مقولة اشتهرت على ألسنتهم ، ألا وهى : **لا حكم إلا لله** ، أى لا ينبغى أن يُعارَض الحاكم ، لأنه يتحدث باسم الله ، , وهذا

خلط للأوراق ، وجهل بأحكم الله وشريعته ؛ فها هى ذى أحداث غزوة بدر تبين أن أحد المسلمين عارض الرسول ﷺ فيما ليس وحياً ، أفلا يجوز لنـــا أن نعارض ولى الأمر ، وهو بشر لا يرقى إلى شراك نعل رسول الله ﷺ .

تعلمنا غزوة بدر أن النقاش حق لكل مسلم ، وأن الاعتراض جائز ، مادام بعيداً عن نص الوحى ، وأن ولى الأمر ينبغى أن يسمع للمعارضين ويترل على رأيهم إن كان فى ذلك مصلحة للأمة ، وتلك قيمة كبرى قامت عليها الحضارات ، ولا زالـــت العنـــصر الرئيـــسى للتقـــدم والازدهار .

obeikandl.com